
تعليقات الشيخ صالح بن عبد الله العصيمي

على بهجة الطُّلُب في آداب الطُّلُب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَهُ الْإِحْكَامُ ثُمَّ الصَّلَاةُ بَعْدُ وَالسَّلَامُ
عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ طُرًّا بِلَا تَنَْاهِي
وَبَعْدُ ذِي أَرْجُوزَةٍ جَدِيرَةٍ بِالْحِفْظِ وَالْإِدْرَاكِ بِالْبَصِيرَةِ
لِللُّؤْلُؤِي تُعْزَى أَوْ الْمَأْمُونِ وَنَصُّهَا الْمَجْلِيُّ لِلْعُيُونِ

📌 ابتداءً النَّاطِمُ - وفقه الله - منظومته :

♦ بالبسملة ،

♦ ثم ثنّى بالحمدلة ،

♦ ثم ثلثَ بالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَقْرُونَةً بالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى آلِهِ .

👉 وهؤلاء الثلاثة من آدابِ التَّصْنِيفِ اتِّفَاقًا .

👉 وأكد النَّاطِمُ الصَّلَاةَ عَلَى الْآلِ بِقَوْلِهِ : (طُرًّا) ؛ أَيٌ : جميعًا ، تحقيقًا لشُمُولِهَا آلَ النَّبِيِّ كُلِّهِمْ ، وهم : بنو هَاشِمٍ الْقُرَشِيُّونَ وَأَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ .

📌 فَاسْمُ (آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ) يَجْمَعُ شَيْئَيْنِ :

1 أحدهما : مَنْ نَسَلَ مِنْ ذُرِّيَّةِ هَاشِمٍ .

2 وَالْآخَرُ : أَزْوَاجُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَوْ كُنَّ مِنْ غَيْرِ بَنِي هَاشِمٍ أَوْ قُرَيْشٍ .

📌 وَالْمُخْصُوصُونَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الْآلِ : هُمُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُمْ .

👉 وجعل الناظم الصلاة والسلام على النبي ﷺ وعلى آله ممدودة غير محدودة لقوله : (بلا تناهي) ؛ أي : بلا حد تنتهي إليه .

📌 والمطلوب شرعاً : الإكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ وعلى آله .

✍️ والمراد بـ (الإكثار) : غلبة الأمر على العبد حتى يتميز به ، فالمكثر من الصلاة والسلام على النبي ﷺ وعلى آله هو الذي يغلب على لسانه ذكر الصلاة والسلام عليه وعليهم .

📖 ورويت أحاديث في جعل ذلك عشرًا ، أو مائةً ، أو خمسين ، أو ألفًا ؛ وكلُّ تلك الأحاديث لا يثبت منها شيءٌ ، فالأحاديث الواردة في تقدير عدد يصلي ويسلم به على النبي ﷺ ضعافٌ لا يصحُّ منها شيءٌ .

💡 واسم (الإكثار) يحصل بغلبتها على لسان العبد ؛

فمثلاً : المأمور به من الإكثار من الصلاة والسلام على النبي ﷺ ليلة الجمعة ويومها لا يحصل بعدد معين بأن تُصلي عشرًا أو خمسين أو مائة أو ألفًا ، وإنما يحصل بأن تغلب الصلاة والسلام على لسانك في أحوالك في تلك الليلة ويومها .

❌ فلو قدر أن أحدًا صلى وسلم قطعة من اليوم جلس فيها فصلّى وسلم خمسين أو مائةً ، فاسمُ (الإكثار) لا يتحقق عليه ،

✅ وإنما يتحقق بأن تغلب الصلاة والسلام على لسانه في جميع ذلك اليوم وليلته .

💎 ومن حسان المأثورات : ما رواه قوام السنة الأصبهاني في كتاب «فضائل الأعمال» ، عن الحسين بن عليٍّ -رحمه الله- أنه قال :
✓ «علامة أهل السنة : كثرة الصلاة على النبي ﷺ» .

📌 ثم ذكر أن المسوق هنا من نظمه حقيق بأمرين ، هو جدير بهما :

1 أحدهما : الحفظ للمباني .

2 والآخر : الفهم للمعاني .

👉 وذلك في قوله : وبعد ذي أرجوزة جديره ... بالحفظ والإدراك بالبصيرة

✍ فقوله : (بالحفظ) ؛ إشارة إلى حفظ المباني .

✍ وقوله : (والإدراك بالبصيرة) ؛ إشارة إلى فهم المعاني ؛

■ لأن الإدراك حقيقته : الفهم .

■ وآلته : البصيرة القلبية .

💡 فمن وجه بصيرته القلبية في وعي شيء فهمه وأدركه .

📌 وهذه المنظومة التي اصطفاهَا ناظمها لتكون رأس ما يحفظ في آداب الطلب بما شُهر بعض أبياتها مرسلاً ، فسَتعلم في ما يُستقبل أن هذه المنظومة مزوجة بين نظم ناظمها - الذي جعل لها مقدمة وخاتمة - مع أبيات تُنسب لغيره - هي المبدوءة بقوله : (اعلم بأن العلم بالتعلم) إلى تمام المنظومة سوى البيت الأخير - .

← فما بين المقدمة والخاتمة اختلف في قائله ، فعزى إلى رجلين :

1 أحدهما : اللؤلؤي ؛ وهي نسبة جماعة ، أشهرهم : الحسن بن زياد اللؤلؤي ، من فقهاء أصحاب أبي حنيفة النعمان .

2 والآخر : المأمون ؛ وهو لقب الخليفة العباسي عبد الله بن هارون القرشي المطليبي .

فعزيت إلى هذا ، وعزيت إلى هذا ، ولم يعلم قائلها على وجه التحقيق .

💡 ولصحة معانيها ، ولطافة مبانيها ؛ تلقاها أهل العلم بالقبول ، فتقدم ذكرهم لها ، وأقدم من ذكرها - فيما يعلم - هو : أبو عمر بن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» ، وعدّها أحسن ما قيل في آداب الطلب .

وقوله : (وَنَصَّهَا الْمَجْلِيُّ لِلْعَيْنِ) مَعَ مَا بَعْدَهُ ؛ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ الْأَرْبَعَةَ الْأُولَى لَيْسَتْ مِنَ النَّظْمِ الْقَدِيمِ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو عَمْرٍو
بن عبد البر وغيره ؛

👉 فالأبيات الأربعة التي صُدِّرَتْ بِهَا الْمَنْظُومَةُ هِيَ مِنْ نَظْمِ شَيْخِنَا -وفقه الله- ، ثُمَّ خُتِمَتْ بِبَيْتٍ جُعِلَ خَتَمًا لَهَا .

فإنَّ العلمَ خَاصَّةً وَمَا يَنْفَعُ عَامَّةً إِذَا جُعِلَ بَيْنَ مُقَدِّمَةٍ وَخَاتِمَةٍ بَانَ نَفْعُهُ ، وَاعْتَبِرْ هَذَا فِي إِنْزَالِ الْقُرْآنِ مُنْجَمًا فِي سُورٍ- أَيَّ : مُفَرَّقًا فِي
نَسْقِ سُورٍ- ، كُلُّ سُورَةٍ لَهَا مَطْلَعٌ هُوَ فَاتِحَتُهَا ، وَلَهَا مَقْطَعٌ هُوَ خَاتِمَتُهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْءَ إِذَا جُمِعَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ وَعِيَّ وَأَدْرَكَ ، وَمِنْهُ : الشَّعْرُ
الْمُرْسَلُ ، فَإِنَّهُ إِذَا أُحِيطَ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ وَيُرْشَدُ إِلَيْهِ كَمَلَتْ مَنْفَعَتُهُ ، فَهُوَ الَّذِي حَذَّا جَامِعَ هَذِهِ النُّبْدَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْرَاقِ إِلَى تَقْدِيمِ أَبْيَاتٍ بَيْنَ
يَدَيْهَا وَخَتَمِهَا بِبَيْتٍ وَاحِدٍ .

وسمى ذلك كله : «بَهْجَةُ الطَّلَبِ فِي آدَابِ الطَّلَبِ» ؛

وَالطَّلَبُ : جَمْعُ طُلْبَةٍ ؛ وَهِيَ : السَّفَرَةُ الْبَعِيدَةُ ؛ فَإِنَّ مَنْ شَعَارَ الْعِلْمِ : الرَّحْلَةَ فِيهِ .

ومن مباهج الارتحال : التَّزِينُ بِالْآدَابِ .

فَمَنْ ارْتَحَلَ فِي الْعِلْمِ مُتَزِينًا بِالْأَدَبِ أَدْرَكَ بُغْيَتَهُ .

وَجَعَلَ النَّازِمُ هَذَا الْاسْمَ لَهَا مَخْتُومًا بِقَوْلِهِ : (فِي آدَابِ الطَّلَبِ) ؛ لِأَنَّ آخِرَ شَطْرٍ مِنْهَا هُوَ قَوْلُ نَازِمِهَا : (فَأَفْهَمَ هَذَاكَ اللَّهُ آدَابَ
الطَّلَبِ) .

اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعْلَمِ وَالْحِفْظِ وَالْإِتْقَانِ وَالتَّفْهَمِ

📌 من الأصول المُعِينَةِ عَلَى حِيَاةِ الْعِلْمِ وَجَمْعِهِ : التَّحْلِي بِشِعَارِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي قَوْلِهِمْ : (الْعِلْمُ بِالتَّعْلَمِ) ؛
أَيُّ : بَطْلَبِهِ وَابْتِغَائِهِ ، فَإِنَّ أَحَدَنَا لَا يُولَدُ عَالِمًا ، وَإِنَّمَا يَجْمَعُ الْعِلْمَ إِلَى نَفْسِهِ بِطَلَبِهِ وَإِحْصَائِهِ وَاتِّمَامِهِ ،
وَسَعْيِهِ فِي ذَلِكَ يُسَمَّى : (تَعَلُّمًا) ؛

👉 فَإِنَّ (التَّفْعُلَ) فِي كَلَامِ الْعَرَبِ : اسْمٌ لَمَّا يُبْدَلُ فِيهِ كُلْفَةٌ ، كَدِ التَّعْلَمِ ، وَالتَّحْلَمِ ، وَالتَّكَلُّمِ ، فَإِنَّ الْإِتِّصَافَ بِالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَحُسْنِ
الْمُنَاقَاةِ وَالْكَلَامِ لَا يُحْصَلُ دَفْعَةً وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا يَكَابِدُ الْمَرْءُ مَشَقَّةً حَتَّى يَصِلَ إِلَى مَطْلُوبِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ وَغَيْرِهَا .

📖 وهذه الجملة (العلم بالتعلم) ؛ رُوِيَتْ فِي حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَا يَصِحُّ مِنْ طَرَفِهِ شَيْءٌ ، وَثَبَّتَ مَوْقُوفًا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ
-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّهُ قَالَ : «إِنَّ الرَّجُلَ لَا يُولَدُ عَالِمًا ، إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعْلَمِ» . رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي كِتَابِ «الزَّهْدِ» ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

📌 وَقَوْلُ النَّازِمِ : (وَالْحِفْظُ وَالْإِتْقَانُ وَالتَّفْهَمُ) ، مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ؛ فَالْمَذْكُورَاتُ مِنْ مَسَالِكِ التَّعْلَمِ ؛
🔄 فحِيزَةُ الْعِلْمِ وَجَمْعُهُ تُحْصَلُ بِسُلُوكِ سُبُلٍ مُوصِلَةٍ إِلَيْهِ ، مِنْ جُمْلَتِهَا : الْحِفْظُ ، وَالْإِتْقَانُ ، وَالتَّفْهَمُ .
📌 والمراد بِالْإِتْقَانِ : الْإِحْكَامُ .

🔗 وَمُتَعَلِّقُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ : التَّحْفُظُ وَالتَّفْهَمُ ؛ بِأَنْ يَكُونَ الْحِفْظُ مُتَقَنًا وَالتَّفْهَمُ مُتَقَنًا ، فَمَدَارُ الْعِلْمِ عَلَى التَّحْفُظِ وَالتَّفْهَمِ .
💡 فَإِنَّ قُوَّةَ الْعِلْمِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَصْلَيْنِ : الْحِفْظُ ، وَالتَّفْهَمُ .

📖 ذَكَرَهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْحَفِيدُ ، وَتَوَجَّدَ فِي كَلَامٍ غَيْرِهِ مِنْ قُدَمَاءِ فَلَاسِفَةِ الْيُونَانِ .

👉 وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَنَالُ الْعِلْمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْقُوَّتَيْنِ دُونَ الْأُخْرَى فَهُوَ لَا يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْعِلْمِ ، وَمَنْ لَمْ يَسِرْ فِيهِمَا سِيرَ أَهْلِ الْعِلْمِ
مِنْ مِلَاحَظَةِ الْحِفْظِ فِي زَمَانِهِ وَوَقْتِهِ ، وَمِلَاحَظَةِ التَّفْهَمِ فِي زَمَانِهِ وَوَقْتِهِ أَضَرَّتْ إِحْدَى الْقُوَّتَيْنِ بِالْأُخْرَى .

📖 وَقَدْ ذَكَرَ الْوَشَلِيُّ فِي «الْثَنَاءِ الْحَسَنِ» عَنْ بَعْضِ شُرَاحِ «الرَّحْبِيَّةِ» - وَلَمْ يُسَمِّهِ - أَنَّ مَنْ لَمْ يَرِعِ الْحِفْظَ وَالتَّفْهَمَ كَمَا يَنْبَغِي أَضَرَّتْ
إِحْدَى الْقُوَّتَيْنِ بِالْأُخْرَى . وَهَذَا أَمْرٌ ظَاهِرٌ فِي النَّاسِ ؛

🔄 فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَغَلُ بِالْحِفْظِ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ وَزَمَانِهِ تَقْدِيمًا وَتَأْخِيرًا ، اخْتِيَارًا وَاصْطِفَاءً ، فَيَحْصِلُ لَهُ حِفْظٌ كَثِيرٌ ، وَيَثْقُلُ فَهْمُهُ ؛
لأنه لم يقرنه بالحال التي ينبغي أن يكون عليها من الفهم ،

🔄 وَيُقَابِلُهُ قَوْمٌ آخَرُونَ يَقْعَقِعُونَ بِشَنْشَنَةِ الْفَهْمِ فَقَطْ ، فَتَجِدُهُمْ يُرْسِلُونَ خِيَالَاتِهِمْ فِي تَفْهَمٍ مُعَانِي مَا يَرِيدُونَ ، فَيُثْقِلُونَ عَلَى أَذْهَانِهِمْ ؛
لأنهم لا يستمدون تحقيق تلك المعاني من مخزون محفوظ ، فيقعون في صحراء بَلَقَعٍ ، يَضِيعُونَ فِيهَا فِي تَبَاهٍ .

وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ

فَإِنَّمَا الْمَرْءُ بِأَصْغَرِنِهِ لَيْسَ بِرَجُلٍ وَلَا يَدِينُهُ

لِسَانِهِ وَقَلْبِهِ الْمُرْكَبُ فِي صَدْرِهِ وَذَاكَ خَلْقٌ عَجَبٌ

لَمَّا كَانَ التَّعَلُّمُ سَبِيلًا يُنَالُ بِهِ الْعِلْمُ - كَمَا ذَكَرَ النَّازِمُ فِيمَا سَلَفَ - ؛ بَيْنَ هُنَا أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَتَوَقَّفُ حَصُولُهُ عَلَى عُمُرٍ دُونَ عُمُرٍ ، فَيُدْرِكُهُ أَمْرٌ فِي سِنٍّ وَلَا يُدْرِكُهُ آخَرٌ فِي سِنٍّ أُخْرَى ، بَلِ الْأَمْرُ كَمَا ذَكَرَ فِي قَوْلِهِ :
وَالْعِلْمُ قَدْ يُرْزَقُهُ الصَّغِيرُ فِي سِنِّهِ وَيُحْرَمُ الْكَبِيرُ

فَرَبَّمَا يُوقِفُ الصَّغِيرَ إِلَى الْعِلْمِ وَيُحْرِمُهُ الْكَبِيرُ ، بِحَسَبِ مَا يَتَهَيَّأُ لَهُ مِنَ الْعَوْنِ عَلَيْهِ ، فَيَتَرَشَّحُ لِلْعِلْمِ حِفْظًا وَفَهْمًا مَعَ مَبْتَدَأِ عُمُرِهِ ، وَيَحْصُلُ لَهُ مِنَ الظَّفَرِ بِمَحْفُوظٍ وَاسِعٍ وَمَفْهُومٍ نَافِعٍ ، فَيَرْجِعُ عَلَيْهِ ذَلِكَ بِحُسْنِ رِزْقِهِ فِي الْعِلْمِ .
وَرَبَّمَا يَقَابِلُهُ مَنْ هُوَ مُتَقَدِّمٌ عَلَيْهِ فِي السِّنِّ ، لَكِنْ لَمْ يُصِبْ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا ؛ لِتَرْكِهِ الْإِشْتَغَالَ بِهِ ، فَتَقَدَّمَ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ لِإِشْتَغَالِ الصَّغِيرِ بِهِ فِي الْمُبَادئِ .

وَإِذَا اشْتَغَلَ الْكَبِيرُ بِالْعِلْمِ فَإِنَّهُ يُكِنُّهُ أَنْ يُدْرِكَهُ إِذَا تَجَرَّدَ مِنَ الشَّوَاغِلِ وَالْعَوَاقِقِ وَالْقَوَاطِعِ ،

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «كِتَابِ الْعِلْمِ» : «وَتَعَلَّمَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كِبَارًا» . انْتَهَى كَلَامُهُ .

فَالْتَقَدُّمُ فِي السِّنِّ لَا يَمْنَعُ نَيْلَ الْعِلْمِ حِفْظًا وَلَا فَهْمًا ، وَلَكِنْ أَهْلُ الْعِلْمِ لَهَجُوا بِالْمُبَادَرَةِ إِلَى تَحْصِيلِ الْعِلْمِ فِي مَبْتَدَأِ الْعُمُرِ لِقَلَّةِ الشَّوَاغِلِ وَقُوَّةِ الدَّاعِي إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ .

فَمَنْ تَمَكَّنَ مِنْ كِبَارِ السِّنِّ مِنْ تَخْلِيصِ نَفْسِهِ مِنَ الْقَوَاطِعِ الْمُشْغَلَةِ وَالْعَوَاقِقِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْعِلْمِ وَسَارَ فِيهِ سَيْرًا حَسَنًا فَإِنَّهُ يُدْرِكُ مِنْهُ بُغْيَتَهُ .

◆ ومحل العلم من العبد : قلبه .

◆ وآلة بيان العلم : لسانه .

👉 فالقلب وعاء العلم ، واللسان مغراف ينزع منه ، ولهذا قال الناظم :

فإنما المرء بأصغريه ليس برجلية ولا يديه
لسانه وقلبه المركب في صدره وذاك خلق عجب

✍️ وسمي القلب واللسان : (الأصغران) ؛ لضآلة حجمهما ، وصغر قدرهما من البدن ، فهما بضعتان صغيرتان من بدن الإنسان .

✍️ وقوله : (المرء بأصغريه) ، مثل سيار ؛ معناه : أن المرء يعلو الأمور ويضبطها بقلبه ولسانه . 📖 ذكره الزبيدي في «تاج العروس» .

✍️ وقوله : (وذاك خلق عجب) ؛ أي : وقوع تلك الحال من الإنسان خلق عجب .

فالجنّة القائمة من لحم وبدن يكمل أمرها أو ينقص قدرها بالنظر إلى بضعتين صغيرتين منها ، وهما : القلب واللسان ، وهذا تركيب عجب بديع ؛ فإن الجاري في حال الخلق : أن يكون الأكبر متحكماً في الأصغر ، وقلب هذا في خلقه أحدنا ؛ فأصغراه متحكمان فيه ، فإن تام دين الإنسان وكمال عقله وحسن حاله يرجعان إلى قلبه ولسانه مع ضآلة حجمهما وصغر قدرهما .

👉 وهذا يدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ؛ إذ جعل الإنسان على هذه الصورة البديعة العجيبة التي ردّ فيها أمره كله إلى قلبه ولسانه .

💡 وتحقيق الأمر : أن المرء يردّ في باطنه وظاهره إلى قلبه .

📖 وفيه : حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب» .

🔗 قال ابن تيمية الحفيد : «القلب ملك البدن ، والأعضاء جنوده ، فإذا طاب الملك طابت جنوده ، وإذا خبت الملك خبت جنوده» .

🔗 وإنما جعل اللسان عليه حجاباً ، فالقلب ملك بدنك ، ولسانك حاجبه ، فهو يغرف منه وينزع عنه ، فإذا طاب الملك وكان صالحاً فإن الحاجب (الوزير دونه) يكون صالحاً طيباً ، وإذا خبت وفسد ظهر الخبث والفساد على اللسان وبقية الأركان .

وَالْعِلْمُ بِالْفَهْمِ وَبِالْمُذَاكِرَةِ وَالدَّرْسِ وَالْفِكْرَةِ وَالْمُنَاطَرَةِ

📌 ذكر الناظم في هذا البيت خمسة موارد من الموارد التي توصل العلم إلى النفس ، وتُذيق القلب حلاوته :

1 فالمرور الأول : الفهم

✍ وهو : إدراك المعاني المرادة في الكلام .

💡 والنافع من الفهم هو : المتلقى عن الراسخ في العلم .

👉 فإن من رسخ علمه صارت المعاني التي يبيدها صحيحة ، فانتفع بها متلقيها ، وقويت ملكة فهمه ،

👉 وإذا كان موزع القدم في العلم ، غير متمكن منه بدت تلك المعاني مشوشة ، فتلتبس في نفس المتلقي وتورثه عسر الفهم .

2 والمرور الثاني : المذاكرة

✍ وهي : مراجعة متلقي العلم علمه مع آخر ،

سُميت مذاكرة لأنها مفاعلة بالذكر بين اثنين فصاعداً ، فيجلس أحدهما إلى الآخر ويتجادبان القول مُعيدين ما سبق تلقّيه عن معلمهما .

👉 فاسم (المذاكرة) في كلام العرب يقع بين اثنين فأكثر .

👉 والدارج على السنة الناس مما يسمونه (مذاكرة) اسمه : (مطالعة) ؛ فإن الذي ينظر في الكتب وحده يُسمى مُطالعاً ، سواء كان مُحفظاً أم متفهماً ، واسم (المذاكرة) لا يكون إلا بين اثنين فصاعداً يتجادبان ذكر العلم بينهما .

💡 والنافع من المذاكرة هي : الواقعة مع القرين الجاد ، الطامح إلى معالي الأمور .

3 وَالْمَوْرِدُ الثَّالِثُ : الدَّرْسُ

✍ وهو : تَكَرَّرَ الْعِلْمُ عَلَى النَّفْسِ ، وَإِعَادَتُهُ عَلَيْهَا .

فإنَّ اسمَ (الدَّرْسِ) مأخوذٌ من العودِ والتَّكرارِ .

فإعادةُ العلم بعد حفظه أو بعد فهمه يُسمى (دَرْساً) .

👉 فمَنْ جَلَسَ بَعْدَ الْفَجْرِ فَحَفِظَ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ حَتَّى أَحْكَمَهَا ، فَلَمَّا أُرْسِلَ اللَّيْلُ سِتَارَهُ ، وَبَزَغَتِ النُّجُومُ ، وَهَذَا صَوْتُ النَّاسِ ؛ قَامَ فَأَخَذَ يُكْرِرُ هَذِهِ الْأَبْيَاتَ ، ففَعَلَهُ يُسمى (دَرْساً) ،

👉 وَكَذَا لَوْ كَانَ مُتَعَلِّقًا بِفَهْمِهِ تَلْقَاهُ ، كَأَن يَكُونُ قَرَأَ ذَلِكَ الْمُحْفُوظَ عَلَى شَيْخٍ بَيْنَ لَهُ مَعَانِيهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى دَارِهِ ، فَإِنَّهُ إِذَا أَعَادَ تَذَكَّرَ تِلْكَ الْمَعَانِي الَّتِي تَلْقَاهَا وَأَمَرَهَا عَلَى نَفْسِهِ يُسمى هَذَا (دَرْساً) .

💡 وَالنَّافِعُ مِنَ الدَّرْسِ : هُوَ الْكَائِنُ فِي وَقْتِ النَّشَاطِ وَالْقُوَّةِ .

فمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْتَفِعَ بِدَرْسِهِ مُعِيدًا لَهُ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَخَيَّرَ أَوْقَاتَ نَشَاطِهِ وَقُوَّتِهِ .

4 وَالْمَوْرِدُ الرَّابِعُ : الْفِكْرَةُ

✍ وَهِيَ تَحْقِيقُ النَّظَرِ فِي مَا يَبْتَغَى مِنَ الْعِلْمِ بِإِمْرَارِهِ عَلَى الْقَلْبِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ ، وَاسْتِخْرَاجُ مَا تَحْتَ الْمَبْنَى مِنَ الْمَعْنَى .

💡 فَإِنَّ مَبَانِي الْكَلَامِ خَزَائِنُ الْمَعَانِي ؛ فَتَحْقِيقُ النَّظَرِ فِيهَا وَإِجَالَتُهُ تسمى (فِكْرًا) ، بَأَن تَتَطَلَّبَ الْوَصُولَ إِلَى مَقْصُودٍ تُقَلِّبُ نَظْرَكَ فِيهِ حَتَّى تُدْرِكَ مَعْنَى تَلْتَمِسُهُ فِي مَا تُطْلِقُ الْفِكْرَ فِيهِ .

💡 وَالنَّافِعُ مِنَ الْفِكْرِ فِي الْعِلْمِ : هُوَ مَا تَحَرَّكَ بِهِ الذَّهْنُ بَعْدَ تَمَامِ الْفَهْمِ وَاكْتِمَالِ آلَةِ الْعِلْمِ ؛ فَالْفِكْرُ فِي الْعِلْمِ لِلْوَصُولِ إِلَى الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ مُحَلَّهُ فِي مَا يُسْتَقْبَلُ مِنْ عَمْرِ مُتَلَقِيهِ ،

🚫 فَلَا يَحْسُنُ الْهُجُومُ عَلَيْهِ فِي الْمَبَادِي ، أَوْ عِنْدَ الْمُتَوَسِّطِينَ ، أَوْ عِنْدَ الْمُنتَهِينَ قَبْلَ امْتِلَائِهِمْ مِنَ الْعِلْمِ .

✅ فَإِنَّ الْفِكْرَ فِي الْعِلْمِ لَا تَحْصُلُ مَنْفَعَتُهُ إِلَّا بَعْدَ تَمَامِ فَهْمِ مَعَانِيهِ ، فَإِذَا تَمَّ فَهْمُ الْمَعَانِي ، ثُمَّ اكْتَمَلَتْ آلَةُ الْعِلْمِ مِنْ تَلْقَائِهِ فَنَوْنَهُ كَانَ فِكْرُ الْمَرْءِ فِيهِ حِينئِذٍ كَمَالًا يُورِثُ كَمَالًا ، وَإِنْ كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ كَانَ خَبَالًا يُورِثُ خَبَالًا .

5 وَالْمَوْرِدُ الْخَامِسُ : الْمُنَاطَرَةُ

وَهِيَ : الْبَحْثُ فِي الْعِلْمِ مَعَ غَيْرِهِ لِنُصْرَةِ قَوْلٍ دُونَ آخَرَ ، وَإِقَامَةُ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ . 

وَالنَّافِعُ مِنَ الْمُنَاطَرَةِ : مَا كَانَ مَعَ ذِي عِلْمٍ لِإِرَادَةِ الْحَقِّ . 

فَالْمُنَاطَرَةُ النَّافِعَةُ تَجْمَعُ وَصْفَيْنِ :

♦ أَحَدُهُمَا : وَقُوعُهَا بَيْنَ مُتَّصِفَيْنِ بِالْعِلْمِ الْكَامِلِ ؛ إِمَّا فِي نَفْسَيْهِمَا وَإِمَّا فِي تِلْكَ الْمَسْأَلَةِ بَعَيْنِهَا .

♦ وَالْآخَرُ : أَنْ يَكُونَ مُرَادُ كُلِّ مِنْهُمَا الْوُصُولُ إِلَى الْحَقِّ .

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحِفْظَا وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا
وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبٌ مِّمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ
وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الحُبِّ لِلْعِلْمِ وَالدُّكْرِ بَلِيدِ القَلْبِ
مُعْجَزٍ فِي الحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةَ
وَأَخَرٌ يُعْطَى بِلاَ اجْتِهَادٍ حِفْظًا لِمَا قَدْ جَاءَ فِي الإِسْنَادِ
يُفِيدُهُ بِالقَلْبِ لَا بِالنَّظَرِ لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ

ذكر الناظم في هذه الأبيات أنَّ النَّاسَ يتفاوتونَ في حظوظِهِم من الحفظِ والفهمِ الَّذِي ينالونَ بهِ العلمَ ؛

▲ فتجدُ فيهِم مَنْ تكونُ له أهليَّةٌ في الفهمِ وقُدرةٌ عليه ، فهو واعيَّةٌ دَرَاكٌ للمعاني .

▲ وتجدُ منهم مَنْ يتقاصرُ عن هذه الرتبةِ من الفهمِ ، فَمَا لَهُ فيه كبيرُ نصيبٍ ، وإن كانَ له حظٌّ من الحفظِ .

وأشار الناظم إلى الثاني منهما بقوله :

فَرُبَّ إِنْسَانٍ يَنَالُ الحِفْظَا وَيُورِدُ النَّصَّ وَيَحْكِي اللَّفْظَا
وَمَا لَهُ فِي غَيْرِهِ نَصِيبٌ مِّمَّا حَوَاهُ الْعَالِمُ الْأَدِيبُ

👉 وعُرفَ مُقابله بحاله ؛ فإنه إذا كانَ في النَّاسِ مَنْ يَضْعُفُ فَهْمُهُ ، فمُقابله منهم : مَنْ يقوى فَهْمُهُ .

▼ وتجدُ فيهِم أيضاً بالنسبة للحفظِ مَنْ يكونُ ضعيفَ الحفظِ مع محبَّةِ العلمِ ورغبته فيه .

▼ وتجدُ منهم مَنْ هو قوِيُّ الحفظِ ، مُتمكِّنٌ منه ، سهلٌ عليه .

فالنَّاسُ متفاوتونَ في الحفظِ والفهمِ على درجاتٍ ومَرَاتِبَ مُتباينةٍ .

وأشار الناظم إلى مراتب الناس في الحفظ في قوله :

وَرُبَّ ذِي حِرْصٍ شَدِيدِ الْحُبِّ	لِلْعِلْمِ وَالذِّكْرِ بَلِيدِ الْقَلْبِ
مُعْجَزٍ فِي الْحِفْظِ وَالرَّوَايَةِ	لَيْسَتْ لَهُ عَمَّنْ رَوَى حِكَايَةِ
وَأَخْرَ يُعْطَى بِلاَ اجْتِهَادِ	حِفْظًا لَمَّا قَدْ جَاءَ فِي الْإِسْنَادِ
يُفِيدُهُ بِالْقَلْبِ لَا بِنَاطِرِهِ	لَيْسَ بِمُضْطَرٍّ إِلَى قَمَاطِرِهِ

◆ فالأول : كليل الحفظ ، ضعيفه .

◆ والثاني : قوي الحفظ حتى تتمكن الحفوظات في قلبه دون كبير اجتهاد منه ؛

ومنه : حال عبد الله بن المبارك ؛ فإنه سئل : كيف تحفظ يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال : « إنما هو إذا انتهيت شيئاً حفظته » ؛ أي : إذا وجد في قلبي محبة ورغبة له وجد طريقاً إلى قلبي ، فتمكن منه ورسخ فيه ، فصار علمه حاضراً بقلبه ، فهو لا يحتاج إلى النظر في الكتب المشار إليها بقوله : (ليس بمضطر إلى قماطره) ؛

فالقماطر : جمع قمطر ، وهو : وعاء تحفظ فيه الكتب ، بمنزلة الحقيبة في وقتنا .

■ وكان الخليل ابن أحمد ينشد بيتاً سيّاراً :

فالتمس العلم وأجمل في الطلب والعلم لا يحصل إلا بالأدب

فَالْتَمَسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ وَالْعِلْمُ لَا يَخْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ

لَمَّا بَيْنَ النَّازِمُ أَنَّ الْعِلْمَ بِالتَّعَلُّمِ ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ خَمْسَةِ مَوَارِدَ يُحْصَلُ بِهَا الْعِلْمُ ؛ أَرَشَدَ إِلَى مَا تَنْبَغِي مِلَاحَظَتُهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ ، فَقَالَ : (فَالْتَمَسِ الْعِلْمَ وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ) ؛ أَيُ : ابْتَغِ الْعِلْمَ وَأَحْرِصْ عَلَى تَحْصِيلِهِ ، سَالِكًا مَا يَجْمَلُ مِنَ الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ إِلَيْهِ .

فَقَوْلُهُ : (وَأَجْمِلْ فِي الطَّلَبِ) ؛ مَعْنَاهُ : اسْلُكْ فِيهِ طَرِيقًا جَمِيلًا حَسَنًا ، بِأَنْ تَأْتِيَهُ مِنْ وَجْهِهِ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْهُ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي «تَعْظِيمِ الْعِلْمِ» وَ«خُلَاصَتِهِ» وَغَيْرِهِمَا : بَيَانُ كَثِيرٍ مِنَ الْقَوْلِ الْمُتَعَلِّقِ بِمَا يَجْمَلُ فِي طَرِيقِ اخْتِذِ الْعِلْمِ ،

▲ فَمَنْ سَلَكَهَا كَانَ أَخْذُهُ جَمِيلًا ،

▼ وَمَنْ عَدَلَ عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا أَضَرَّ بِنَفْسِهِ فِي الْعِلْمِ لَغَلَطَهُ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهِ .

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ مِنْ مِفْتَاحِ حَيَاةِ الْعِلْمِ : سُلُوكُ الْأَدَبِ ، وَالتَّزَامُ مُقْتَضَاهُ فِي النَّفْسِ وَالدَّرْسِ وَمَعَ الشَّيْخِ وَالزَّمِيلِ ، فَقَالَ : (وَالْعِلْمُ لَا يَخْصُلُ إِلَّا بِالْأَدَبِ) ، وَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِ يُوسُفَ بْنِ الْحُسَيْنِ : «بِالْأَدَبِ تَفْهَمُ الْعِلْمَ» . رَوَاهُ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ فِي «اِقْتِضَاءِ الْعِلْمِ الْعَمَلِ» .

👉 وَالْجُمْلَةُ الْمَذْكُورَةُ لَهَا مَتَعَلِّقَانِ :

1 أحدهما : الهبة الإلهية .

2 والآخر : المنحة البشرية .

♦ فأمَّا الهبةُ الإلهيةُ : فإنَّ اللهَ يهبُ العلمَ لمنْ كانَ متأدِّباً ، فإنَّ العلمَ ميراثُ النبوةِ ، وإنَّ اللهَ لا يجعلُ منْ أنوارِ النبوةِ في قلوبِ قَلِيلِي الأدبِ .

■ ولو قدرَ وجودُ شيءٍ من العلمِ عندَ قليلِ أدبٍ فهو ليسَ العلمَ الممدوحَ شرعاً .

■ فالعلمُ الممدوحُ شرعاً : هو النافعُ ، المُقربُ إلى اللهِ ، الحاملُ للعبدِ على التزامِ شريعتهِ .

♦ وأمَّا المنحةُ البشريَّةُ : فإنَّ المُعلِّمينَ يتعهَّدونَ المتأدِّبينَ ؛ فهو يبدِّلُ علمهَ للمؤدِّبِ ، ويمنعُ قليلَ الأدبِ منه ، فإنَّ العاقلَ من المُعلِّمينَ يعلمُ أنَّ العلمَ خزانةٌ ، وهو أمينٌ عليها ، فمنْ صدَّقَ الأمانةَ أنْ يتحرَّى مَنْ له حقٌّ في تلكَ الخزانةِ ، ولا حقٌّ في العلمِ إلاَّ لمنْ تأدَّبَ بأدابه ، فإنَّ الذينَ لا يتأدَّبونَ بأدابِ العلمِ معَ اللهِ ، ومعَ رسوله ﷺ ، ومعَ أئمةِ أهلِ العلمِ ، ومعَ شيوخِهِمْ ، ومعَ أقرانِهِمْ ، ومعَ مجالسِ العلمِ وأهله ؛ ليسَ لهمْ حقٌّ في تلكَ الخزانةِ ؛ فإنَّ تلكَ الخزانةَ فيها العلمُ الموروثُ عن النَّبيِّ ﷺ ، والأمينُ الصَّادقُ لا يجعلُ تلكَ الجواهرَ والألآئِ إلاَّ عندَ مَنْ له حقٌّ فيها .

● وأولئكَ الذينَ لهمْ حقٌّ هم الملتزمونَ بشروطها من الآدابِ الشرعيَّةِ ، والأحكامِ المرعيَّةِ ، فإذا وُجدتْ فيهمْ كانَ حقيقاً بحاملِ العلمِ أنْ يبذلَه لهُم ، وإذا سَلِبَتْ منهمْ كانَ حقيقاً بصاحبِ العلمِ أنْ يَمْنَعَه منهمْ .

○ واعتبرِ هذا في أخبارٍ من أحوالِ مَنْ مضى ؛

♦ فإنَّ عبدَ الرَّحْمَنِ بنَ أَبِي حاتمٍ وأصحابه لما قَصَدُوا مِصرَ لِسَماعِ الحديثِ على الشُّيوخِ ، وصَاقَ بِهِمْ زَمَنُهُمْ عَنِ السَّماعِ على عبدِ اللهِ بنِ مَسْلَمَةَ بنِ قَعْنَبِ القَعْنَبِيِّ كانَ يَأْتِيهِمْ بَعْدَ العِشاءِ ، فيقرأُ عَلَيْهِمْ كِتَابَ «الموطأ» الَّذي يرويه عن الإمامِ مالِكٍ ؛ لأنَّهُ رَأاهُمْ أَهْلَ أدبٍ ، يَتَحَرَّونَ العلمَ ويلتزمونَ شروطَه ، فحَمَلَ على نَفْسِهِ في حَمْلِ العلمِ إِلَيْهِمْ لأنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَهُ وَهُمْ مِنْ أَهْلِهِ .

♦ وفي أخبارِ سُفْيَانَ بنِ عُيَيْنَةَ أَنَّهُ كانَ يَقُولُ : «إني لأَحْرِمُ الرَّجُلَ الْفائِدَةَ لما أَرى مِنْ حَالِ جَلِيسِهِ» ، فهو يلاحظُ أنَّ ملتَمِسَ العلمِ له صُحْبَةٌ لا تصلُحُ فيه فيمنعُه العلمُ ؛ لأنَّهُ يخافُ أنْ تُفسدَه تلكَ الصُّحْبَةُ فيجعلَ العلمَ عندَ مَنْ لا يستحقُّه .

الأدب النافع حُسْنُ الصَّمْتِ ففي كثير القول بعض المقت

فكن لحسن الصمت ما حييتا مقارناً تحمداً ما بقيتا

لما قرّر الناظم أن العلم لا يحصل إلا بالأدب شرع يذكر أنواعاً من الأدب ووجوهاً منه ، مُقدِّماً (حُسْنُ الصَّمْتِ) ؛ أي : الصَّمْتَ الحَسَنَ بالإمساكِ عما لا يحتاج إليه من الكلام .

ويؤكد الصمت إذا تحققت مَضَرَّةُ الكلام ، أو لم تتبين منفعته ولا مَضَرَّتَهُ .

فالكلام ثلاثة أقسام :

1 أحدها : كلام بين المنفعة .

2 وثانيها : كلام بين المَضَرَّة .

3 وثالثها : كلام لم يتبين نفعه من ضرره .

والعبد مأمور في القسمين الأخيرين بالصمت لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ » ؛

▲ فالكلام المأمور به هو ما كان خيراً - أي بين المنفعة - ،

▼ وما عداه - مما يكون بين المَضَرَّة ، أو لم تتحقق منفعته من مَضَرَّتِهِ - فإنَّ العبد مأمور بالإمساك عنه وأن يحزن لسانه ويحفظه ، مُتَثَلًا ما أرشد إليه الناظم بقوله : فكن لحسن الصمت ما حييتا مقارناً تحمداً ما بقيتا

أي : كن خازناً للسانك ، حافظاً له ، مُسَكِّاً عما لا خير فيه من الكلام ، فإنك تحمد عاقبة ذلك في الدنيا والآخرة ، ويبقى ذكرك بالخير في الحياة وفي الممات ما بقي خبرك .

وهذا الأمر هو من أكثر موارد العطب التي تُفسد بها أحوال الخلق إذا أرسلوا ألسنتهم في ما لا ينفعهم ، أو في ما هو بين الضرر ، أو مما لا يتبين نفعه من ضرره ، فإنه يرجع هذا عليهم بفساد قلوبهم .

وقد ذكر ابن القيم في غير كتاب أبواباً من مفسدات القلوب، فلهج بواحد منها وهو: (كثرة الكلام)، فإن من كثّر كلامه كثّر خطؤه فوقع في ما يضر، أو وقع في ما لا يتبين منفعته من ضرره، فيرجع ذلك عليه بفساد قلبه.

وحبس اللسان وخزنه من الرياضات النافعة في تهذيب النفس وإصلاح الأخلاق، فينبغي أن يعود أحدنا نفسه خزن لسانه بأن يتقلل من الكلام، وإذا جلس في موضع فيه غيره ممن هو أكبر منه أمسك ولم يتكلم، وإن كان يشار إليه بالعلم أكثر منه، ممن هو في أقرانه، فإن رعاية هذا مما ينتفع به العبد في صلاح قلبه وحسن دينه.

■ وإذا كثّر هذر المرء وجريان لسانه بين الناس وقع في أشياء تفسد دينه ودنياه.

وفي أخبار مروق العجلي أنه قال: «جاهدت نفسي عشر سنين في تعلم الصمت». انتهى كلامه.

■ ووجه المجاهدة: أنه توجد عنده شهوة الكلام فيحبس لسانه.

فإذا أردت أن ترتاض رياضة حفظ اللسان فاعقل هذا المعنى، فإذا اشتاقت نفسك للكلام، وارتفعت إليك الأبصار وأشارت إليك الأصابع فأجزم لسانك ما استطعت، إما بالإمساك عن الكلام تارة، أو بالتقلل منه تارة أخرى، فإذا أُلجئت إلى الحديث فأقل الكلام، فإن قلة الكلام يكثر بها دين المرء وعقله، كما أن كثرة الكلام يضعف بها دين المرء وعقله.

واعتبر هذا في أحوال الناس تجد صدقه.

وَأَنْ بَدَتْ بَيْنَ أَنْاسٍ مَسْأَلَهُ مَعْرُوفَةٌ فِي الْعِلْمِ أَوْ مُفْتَعَلَةٌ

فَلَا تَكُنْ إِلَى الْجَوَابِ سَابِقًا حَتَّى تَرَى غَيْرَكَ فِيهِ نَاطِقًا

فَكَمْ رَأَيْتُ مِنْ عَجُولٍ سَابِقٍ مِنْ غَيْرِ فَهَمٍ بِالْخَطَاءِ نَاطِقٍ

أَزْرَى بِهِ ذَلِكَ فِي الْمَجَالِسِ بَيْنَ ذَوِي الْأَلْبَابِ وَالْتِنَافُسِ

الصَّمْتُ فَأَعْلَمَ بِكَ حَقًّا أَزَيْنُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتَقَنٌ

📌 ذَكَرَ النَّاطِمُ أَنَّ مِنْ مَوَارِدِ الصِّمْتِ الْحَسَنَ : الإِمْسَاكُ عَنِ الْكَلَامِ فِي مَا يَجْرِي ذِكْرُهُ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ ، مِمَّا شُهِرَ مِنْهُ فِي الْمَسَائِلِ الْمَقْرَرَةِ الْحَاصِلَةِ أَوْ فِي الْمَسَائِلِ الْمُتَجَدِّدَةِ النَّازِلَةِ .

👉 فَإِنَّ الصَّمْتَ الْحَسَنَ : أَنْ يُسْكِتَ الْمَرْءُ عَنِ الْجَوَابِ فِيهِ حَتَّى يَرَى غَيْرَهُ مَنْ هُمْ أَكْمَلُ عِلْمًا ، وَأَكْبَرُ سِنًا ، وَأَثَمُ عَقْلًا قَدْ تَكَلَّمُوا فِيهِ فَيَتَكَلَّمُ حِينَئِذٍ بِمَثَلِ كَلَامِهِمْ ، وَيُحَابِي مَقَالَهُمْ ، وَيَبْنِي عَلَى أَصُولِهِمْ ، وَيُوسِعُ النَّظَرَ فِي مَا قَرَّرُوهُ .

💎 فَمِنْ حُسْنِ صِمْتٍ أَحَدِنَا : الْأَلَّا يَزَاحِمَ أَهْلَ الْعِلْمِ الْقَائِمِينَ بِهِ فِي مَا هُمْ بِهِ أَوْلَى .

👉 وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ لَمْ يَتَقَدَّمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، فَإِذَا تَكَلَّمُوا وَكَانَ قَدْ زَوَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِمَثَلِ كَلَامِهِمْ تَكَلَّمَ حِينَئِذٍ بَعْدَ كَلَامِهِمْ ، وَإِنْ زَوَّرَ فِي نَفْسِهِ خِلَافَ كَلَامِهِمْ أَمْسَكَ حِينَئِذٍ عَنِ الْكَلَامِ ؛ فَإِنَّهُ خَيْرٌ لَهُ فِي دِينِهِ وَعَقْلِهِ .

📎 فَلَوْ قُدِّرَ أَنَّ أَمْرًا مِنَ الْأُمُورِ جَرَى بَيْنَ النَّاسِ فَالْزَمَ الصَّمْتَ الْحَسَنَ وَإِنْ كَانَ النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ مِنْكَ كَلِمَةً ، فَإِذَا تَقَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْكَ أَحَدٌ فَتَكَلَّمَ وَاحْتِيجَ إِلَى كَلَامِكَ - نَصْرَةً لِلْحَقِّ وَتَقْوِيَةً لَهُ وَكَنْتَ تَرِيدُ الْكَلَامَ بِمَثَلِ مَا تَكَلَّمَ بِهِ - فَتَكَلَّمَ بَعْدَهُ ، وَإِنْ عَرَضَ لَكَ مِنَ الْمَعَانِي مَا تَرَى بِهِ أَنَّ الرَّاجِحَ عِنْدَكَ هُوَ خِلَافُ مَا قَرَّرَهُ وَكَانَ هُوَ مِنَ الْمُأْمُونِينَ فِي الْعِلْمِ ، الْمَنْظُورِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْخَلْقِ فَلَا تُزَاحِمُهُ ، وَالزَّمْ مَا عِنْدَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، حَتَّى إِذَا احتِيجَ إِلَيْكَ فَحِينَئِذٍ قُمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ .

💡 فَإِنَّ مَنْ رَعَى هَذَا الْأَدَبَ مِنَ الْعِلْمِ فِي نَفْسِهِ حَفِظَ دِينَهُ وَعَقْلَهُ ، وَمَنْ زَاحَمَ أَهْلَ الْعِلْمِ أَزْرَى عَلَى دِينِهِ وَعَقْلِهِ .

📌 ذَكَرَ النَّاطِمُ مِنْ مَزَالِقِ الْعَجَلَةِ فِي الْعِلْمِ وَالْمُسَابَقَةِ بِالْقَوْلِ فِيهِ الْوُقُوعُ فِي الْخَطَا الَّذِي يُزِيرِي بِصَاحِبِهِ عِنْدَ الْمُتَنَافِسِينَ فِي مَعَالِي الْأُمُورِ ، فَإِنَّ الْمُسَارَعَةَ وَالْمُسَابَقَةَ إِلَى الْقَوْلِ تُجْرِي إِلَى الْوُقُوعِ فِي الْخَطَا ، فَيَكُونُ ذَلِكَ رِزِيَّةً تَعِيبُ الْمُتَكَلِّمَ بِهَا .

👉 وَإِذَا كَانَتْ الْحَالُ كَذَلِكَ فَالْأَمْرُ النَّافِعُ سَلُوكُهُ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِ الْمَصْنَفِ :

الصَّمْتُ فَأَعْلَمَ بِكَ حَقًّا أَزَيْنُ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ مُتَقَنٌ

📎 فَالصَّمْتُ عِنْدَ بَدْوَ الْقَوْلِ فِي مَسَائِلِ الْعِلْمِ أَزَيْنٌ بِأَهْلِهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِ عِلْمٌ مُتَقَنٌ - أَيُ : عِلْمٌ رَاسِخٌ .

وَقُلْ إِذَا أَعْيَاكَ ذَاكَ الْأَمْرُ مَالِي بِمَا تَسْأَلُ عَنْهُ خُبْرٌ

فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ كَذَلِكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكْمَا

📌 ذكر الناظم الجواب النافع في المسائل التي يعزبُ علم أحدنا عنها ، وهو قول : (لا أدري) ، المشار إليه بقوله :
(مالي بما تسأل عنه خبر) ؛ 🖱️ فإذا سئل المرء عن شيء لا يعلمه كان الجواب النافع هو أن يصدع بقول : (لا أدري) .
💡 ولجلالة هذه الكلمة صارت نصف العلم ، كما قال : فَذَاكَ شَطْرُ الْعِلْمِ عِنْدَ الْعُلَمَاءِ كَذَلِكَ مَا زَالَتْ تَقُولُ الْحُكْمَا

📖 وأقدم من أثرت عنه هذه الكلمة : (لا أدري) ، هو عامر بن شراحيل الشَّعْبِيُّ ، أحد التابعين . رواه الدارمي وغيره بإسناد صحيح .

🔗 ووقع في «جامع بيان العلم وفضله» ، وفي «الانتقاء» أن ابن عبد البر قال : (وصح عن أبي الدرداء أنه قال : «لا أدري ؛ نصف العلم») ، وهذه الكلمة لم توجد مروية عن أبي الدرداء في ما في أيدينا من التأليف ، قال الشيخ العصيمي -وفقه الله- : فأخشى أن يكون وهما .

🖱️ فإن صح أنها رويت عنه فأبو الدرداء -رضي الله عنه- أقدم من الشَّعْبِيِّ ، فهو صحابي والشَّعْبِيُّ تابعي ، لكن المروي بإسناده في الكتب التي اتصلت بنا هو مروي عن الشَّعْبِيِّ عند الدارمي وغيره بإسناد صحيح .

🔍 ووجه كونها نصف العلم : أن العلم مقسوم بين (أدري) و(لا أدري) ؛ فأحدهما نصف الآخر . ذكره يحيى بن آدم في ما رواه عنه ابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» .

💠 ومن لطيف العلم : أن سعيد بن عبد العزيز - أحد علماء أتباع التابعين من أهل الشام - كان يقول : «لا أدري لم (لا أدري) نصف العلم» . رواه عنه أبو زرعة الدمشقي في «تاريخه» .

🖱️ وكشف ما غمض عليه : هو المعنى المتقدم الذي ذكره يحيى بن آدم رحمه الله تعالى .

🖋️ وقد صار هذا الأصل - (لا أدري) - أصلاً راسخاً في العلم عند أهله ؛ أن من سئل عن شيء لم يعلمه فإن الوصية النافعة في حقه أن يلزم قول : (لا أدري) ، حتى صار أهل العلم والحكمة يوصي بعضهم بعضاً بلزوم هذه الكلمة .

💡 وقد أشار شيخنا الموفق إلى هذا المعنى في أبيات ؛ منها قوله في أولها :

وَقَوْلُ (لَا أَعْلَمُ) عِنْدَ الْعُقَلَاءِ عُدَّ فِي الْعِلْمِ وَنِصْفًا جُعِلَا

وَفَقْدُهَا مِنَ اللِّسَانِ عَابُوا مَقَاتِلُ الْمَرْءِ بِهِ تُصَابُ

إلى آخر تلك الأبيات .

إِيَّاكَ وَالْعُجْبَ بِفَضْلِ رَأْيِكَ وَاخْذَرْ جَوَابَ الْقَوْلِ مِنْ خِطَابِكَ

كَمْ مِنْ جَوَابٍ أَغْقَبَ النَّدَامَةَ فَاغْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ

حَذَرُ النَّازِمِ فِي هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ بَلِيَّتَيْنِ تَكْتَنِفَانِ الْمُتَكَلِّمَ فِي الْعِلْمِ :

1 فالبليّة الأولى : مُدَاخَلَةُ الْعُجْبِ النَّفْسِ ، وَتَسَلُّهُ إِلَيْهَا ، فَيَرَى الْمُتَكَلِّمُ فِي الْعِلْمِ لِنَفْسِهِ عَلَى غَيْرِهِ فَضْلًا ، ثُمَّ يَطْلُبُ لَهَا قَدْرًا وَوَصْلًا .

وَالْعُجْبُ هُوَ : النَّظَرُ إِلَى النَّفْسِ بِعَيْنِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ .

فتجد من الناس مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْعِلْمِ وَيَعُدُّ مِنْ أَهْلِهِ وَتَعْتَرِيهِ هَذِهِ الْبَلِيَّةُ ، فَيُعْجَبُ بِنَفْسِهِ ، نَازِرًا إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْعَوَائِلِ الْمُفْسِدَةِ لِلْمَرْءِ فِي عِلْمٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى نَفْسِهِ بِعَيْنِ النِّقْصِ ، مُجْتَهِدًا فِي الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ .

ومنه : حاله ﷺ فِي قِيَامِهِ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَتَقُولُ لَهُ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ اللَّهَ غَفَرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، فيقول : « يَا عَائِشَةُ ؛ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا » ؛ فَهُوَ لَا يَرَى أَنَّ مَا لَهُ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ رَبِّهِ شَيْئًا ، وَأَنَّ اللَّهَ حَقِيقٌ بِدَوَامِ شُكْرِهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا أَتَى مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِهِ فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ أَعْظَمُ .

ولا سبيلَ إِلَى الْخَلَاصِ مِنْ طَغْيَانِ الْعُجْبِ إِلَّا بِمِلَاحِظَةِ أَنَّ النِّعْمَةَ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا لَمْ تَكْتَسِبْهَا بِقَوَاكِ وَلَكِنَّ اللَّهَ هَدَاكَ ، وَإِلَّا لَكُنْتَ كغَيْرِكَ مَنْ تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ بِعَيْنِ النِّقْصِ مَنْ يُخَالِطُونَ الْمَعَاصِيَ أَوْ يُضَيِّعُونَ أَوْقَاتَهُمْ فِي مَا لَا يَنْفَعُهُمْ .

2 والبليّة الثانية : ابتداء القول بشيء لم يتكلّم به أحد قبلك ، فيكون إنشاؤه من مبتكرات خيالك ، ومبتدعات أفكارك .

ومحلّ الذمّ : في ما يُحتَاج إليه من العلم المشهور الذي تكلم فيه أهل العلم طبقة بعد طبقة .

والعادة الجارية أن يكون هذا الذي أبداه :

◆ غير مبني على أصل وثيق ،

◆ ولا مسبوق بعالم عتيق ،

فهو يستحسن شيئاً ثم يتكلّم به .

👉 وينبغي أن يحسن المتكلّم في العلم موارد الفهم من أصوله التي يقررها أهله حتّى يعرف ما يجري فيه القول وما لا يجري فيه القول .

■ وما كان ممنوعاً من القول فيه فالسلامة فيه امتثال ما ذكره الناظم بقوله : (فَأَعْتَنِمِ الصَّمْتَ مَعَ السَّلَامَةِ) ؛ فَسَلَامَةُ دِينِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَمْتَثِلَ الصَّمْتَ مُبْتَغِيّاً سَلَامَةَ دِينِهِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَعَرَضِهِ عِنْدَ الْخَلْقِ ،

👉 على أن مَنْ نَبَلَ فِي الْعِلْمِ يُبْتَلَى بِمَنْ لَمْ يَصِلْ إِلَى مَرْتَبَةِ النَّبْلِ فِيهِ مَنْ يُزَيِّفُ أَقْوَالاً صَحِيحَةً فِي كُلِّ قَرْنٍ وَزَمَانٍ ، وَلَكِنَّ طَرِيقَ إِیْصَالِ الْخَيْرِ إِلَيْهِ لَيْسَ بِمُلَاجَجَتِهِ وَمُجَادَلَتِهِ بِالْبَاطِلِ ، وَإِنَّمَا بِنَصَبِ الْحَقِّ .

👉 فهذه المسائل التي ذكرناها وأمثالها من المسائل التي يظنّ بعض الناس أنّ هذه مسائل جديدة ؛ ما من مسألة إلا وفيها من أهل العلم مَنْ تكلّم ؛ لأنّ هذا هو الأصل الذي يسلم به دين الإنسان ويحصل به النفع للخلق .

👉 فإنه ليس المقصود من جمع العلم أن ينهك المرء قلبه ودينه في مُراغمة الناس ومُجادلتهم ومُجادلتهم ، وإنما مقصود صاحب العلم الصادق أن يوصله العلم إلى الله ، ويكون هو موصلاً للخلق إلى الله ، فمتى كانت هذه نيّة فتح الله عليه بأنواع المعارف ولم يشغله بالخلق .

📖 وما أحسن قول ابن عوّن : « ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ ، وَذِكْرُ اللَّهِ دَوَاءٌ » . وقال مَكْحُولُ الشَّامِيُّ : « ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ ، وَذِكْرُ اللَّهِ شِفَاءٌ » .

💎 فاشتغلوا بالدواء والشفاء ، واحذروا من الداء .

الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ

وَلَيْسَ كُلُّ الْعِلْمِ قَدْ حَوِيَتْهُ أَجَلٌ وَلَا الْعُشْرُ وَلَوْ أَحْصَيْتُهُ

وَمَا بَقِيَ عَلَيْكَ مِنْهُ أَكْثَرُ مِمَّا عَلِمْتَ وَالْجَوَادُ يَغْتَرُّ

📌 ذكر الناظم ممَّا يُستعانُ به في تحصيل المطلوب المأمول معرفته ممَّا يسهل بلوغ الأرب إدراك هذه الحقائق المذكورة في هذه الأبيات الثلاثة ، فكلُّ بيتٍ منها يُشيدُ معنىً سامقاً ، ذَا بَالٍ في العلم ؛

1 فأولُّها : معرفةُ مُلتَمِسِ العلمِ أنَّ العلمَ واسعٌ لا مُنتهى له ، كما قال الناظم :
الْعِلْمُ بَحْرٌ مُنْتَهَاهُ يَبْعُدُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ إِلَيْهِ يُقْصَدُ

2 والثَّاني : معرفةُ مُلتَمِسِ العلمِ أنَّه مهما حَصَلَ منه فلنَ يجمعه كُلُّه ، ولا عُشرُهُ ، ولو اجْتَهدَ في إحصائه ؛ فإنَّ القُوَى البشريَّةَ تتناقصُ عن هذا .

3 وثالثُها : معرفةُ مُلتَمِسِ العلمِ أنَّ ما بقيَ وَفَضْلَ وراءَ ما أدركه أكثرُ وأعظمُ ، وهي حالُ النِّقصِ الَّتِي طُبِعَ عليها الإنسانُ ، فالجَوَادُ مهما كان قوياً يَعْرضُ لَهُ عِثَارٌ يسقطُ به .

← فملتَمِسُ العلمِ مهما ابتغى منه مُجتهداً فإنَّه يَبقى وراءَ ما أدركَ من العلمِ علومٌ كثيرةٌ .

فَكُنْ لِمَا عُلِّمْتَهُ مُسْتَفْهِمًا إِنْ كُنْتَ لَا تَفْهَمُ مِنْهُ الْكَلِمَا
الْقَوْلُ قَوْلَانِ؛ فَقَوْلُ تَعْلَمُهُ وَآخِرُ تَسْمَعُهُ فَتَجْهَلُهُ
وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابٌ يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ
وَلِلْكَلامِ أَوَّلٌ وَآخِرُ فَافْهَمْهُمَا وَالذَّهْنُ مِنْكَ حَاضِرُ

📌 ذكر الناظم رحمه الله من الإرشاد النافع للتمس العلم : أن يطلب فهم ما يلقي إليه منه ، وإذا عسر عليه فهم شيء من معانيه اجتهد في تفهمه وسأل عنه ؛

👉 لأن الأقوال التي تذكر لك في العلم هي بالنسبة لك نوعان :

1 أحدهما : قول تسمعه فتعلمه ولا يخفى عليك .

2 والآخر : قول تسمعه فتجهله ويخفى عليك .

♦ فالأول إذا وصل إلى قلبك استقر فيه ، فإنك إذا فهمت معنى من معاني العلم ووعاه قلبك وجد له مربعا ومحلا فيه ،

♦ وأما ما تسمعه فتجهله ويخفى عليك فإنك تحتاج فيه إلى الاستفهام والسؤال حتى تدرك معناه ، فيستقر في قلبك .

📌 فإذا عسر عليك فهم شيء فاستعد تفهمه ؛

👉 إما بتكرار النظر منك في سماع كلام معلمك ،

👉 أو في التماسك منه إعادة بيان ما سمعته منه ولم تفهمه ،

وإنك وإهمال فهم ما لم تفهمه ؛ فإن ترك شيء سمعته دون فهم يورث أفتين :

1 الأولى : ثقل الفهم ؛ فإنك إذا تركت شيئا وثانيا وثالثا تبدل ذهنك .

2 والأخرى : تفويت العلم ؛ فإنك إذا تركت شيئا وثانيا وآخر فاتتكَ أشياء من العلم لم تحسن معرفتها .

مع ما يقارن هاتين الأفتين من علل أخرى ؛ كوقوع الشبهات ، وكثرة الاعتراضات ؛ مما يوجب الاعتناء بحسن التفهم ؛

♦ فتارة : تستعيد كلام معلمك مما يحفظ صوتيا ، فتكرره حتى يقر المعنى في قلبك .

♦ وتارة : تذاكر به صاحباً لك ، فربما يذكر لك ما عذب عنه فهمك .

♦ وتارة : تستعيد - بأدب - من معلمك فهم ما لم تفهمه ، ولا تترك شيئا تسمعه من العلم دون فهم ؛ لما يورثه من نقص سبق ذكره وبيان وجهه .

📌 ثم ذكر الناظم أن كل سؤال يتعلّق به جواب :

فمراده بـ(القول) : السؤال ؛ بدلالة مُقابلته بالجواب ، وذَلِكَ في قوله : وَكُلُّ قَوْلٍ فَلَهُ جَوَابٌ يَجْمَعُهُ الْبَاطِلُ وَالصَّوَابُ

👉 فالجواب له جهتان :

1 إحداهما : الجوابُ الصحيح ؛ المدلولُ عليه بقوله : (الصَّوَابُ) .

2 والأخرى : الجوابُ الخطأ ؛ المدلولُ عليه بقوله : (الباطل) .

💡 وتحقيقُ الحُكم على الجواب بإحدى الجهتين مُناطٌ بموافقة الأدلة ومتابعة الأجلة ، لا بمجرد الذوق ، أو الوجد ، أو الخاطر ، أو ما تعارف عليه الناس أو ما اعتادوه في بلد .

👉 وهذه القاعدة تختص ببعض الكلام في العلم ، وهو : ما وقع جواباً على سؤال .

📌 ثم ذكر قاعدة عامة فيه ، فقال : وَلِلْكَلامِ أَوَّلٌ وَآخِرٌ فَافْهَمْهُمَا وَالذَّهْنُ مِنْكَ حَاضِرٌ

🕒 والمقصود : أن كل كلامٍ فله مبتدأ وله منتهى ، وله سباق وله لحاق ، وله أفراد وله سياق .

👉 فكمال فهمه يكون برعاية مواقعه ، فتعتبر أول الكلام وآخره ، وسباقه ولحاقه ، وإفراده وسياقه ؛ فيوقفك ذلك على الفهم الصحيح له ، فإن أخذت أوله وتركت آخره ، أو أخذت سباقه وتركت لحاقه ، أو اكتفيت بمفرد دون النظر في تركيب سياق ؛ أوقعك ذلك في رد كلام حق ، ودفعك إلى الزور والباطل في العلم ، وهي حال كثير من الناس الذين يُبادرون إلى تزييف حق لأنهم ينظرون إلى أول الكلام دون آخره ، أو : ينظرون إلى سباقه دون لحاقه ، أو ينظرون إلى إفراده دون تركيب سياقه فيقعون في الغلط على العلم وأهله .

💡 فمن أراد أن يسلم له دينه وعلمه وعقله لاحظ هذا في مواقعه من الكلام ، فإنه يوقفه على المعاني الصحيحة ويدفع عنه دعوى الزور التي يدعيها من يدعيها على المتكلمين في العلم .

👉 ولا يمكن حصول تلك الحال إلا بأن تكون حاضر الذهن حين ذلك .

🖋 والمراد بـ (حضور الذهن) : إقبال القلب على المعنى المراد فهمه . فإنك إذا زاغ ذهنك مدة وحضر مدة أوقعك في الغلط .

💎 والعامل يلتبس العذر للمتعلمين ، فإن هذا مما لا يستغرب منه ؛ بل لا يستغرب من يريد بك السوء ، فإن هذا أمر جيلت عليه خليفة الإنسان ، فإن الناس يتنافسون ويتصارعون ويريدون الجاه والرئاسة والزعامة ويتبغون بعضهم في بعض خطأً لإزالته وإنزاله عن رتبة بلعها .

لَا تَدْفَعِ الْقَوْلَ وَلَا تَرُدَّهُ حَتَّى يُؤَدِّيكَ إِلَى مَا بَعْدَهُ

فَرُبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الْفَضَائِلِ جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ

فَيُمَسِّكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ عِنْدَ اغْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

لَمَّا ذَكَرَ النَّازِمُ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ مَا يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الْكَلَامِ حَدَّرَ مِنْ آفَةٍ تَعْرِضُ لِمَنْ اسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ فَهْمُ شَيْءٍ مِنْهُ ، وَهِيَ الْمُبَادَرَةُ إِلَى دَفْعِهِ وَرَدِّهِ ، فَمَنْ النَّاسُ مَنْ إِذَا اسْتَغْلَقَ عَلَيْهِ فَهْمُ شَيْءٍ لَمْ يَدْرِكْهُ بَادِرَ إِلَى رَدِّهِ وَدَفْعِهِ .

وَالوَاقِي مِنَ السَّقُوطِ فِي هَذِهِ الْآفَةِ : هُوَ مِلَاحِظَةُ مَا يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ الْكَلَامِ ، فَرُبَّمَا سَمِعْتَ كَلَامًا عَامًّا يَفْتَقِرُ إِلَى التَّخْصِيسِ ، أَوْ كَلَامًا مُطْلَقًا يَحْتَاجُ إِلَى التَّقْيِيدِ فَبَادَرْتَ إِلَى إِنْكَارِهِ قَبْلَ ظَهْوَرِ تَمَامِهِ ، وَهُوَ الْمُعِينُ عَلَى فَهْمِهِ وَإِفْهَامِهِ ، كَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ ، فَهَذِهِ الْآيَةُ لَا يَتِمُّ مَعْنَاهَا إِلَّا بِقَرْنِهَا بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ، فِي قَوْلِهِ : ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون] .

فَإِنْ أَعْيَا السَّامِعَ فَهْمُ كَلَامٍ وَتَطَلَّعَتْ نَفْسُهُ إِلَى رَدِّهِ وَدَفْعِهِ وَإِبْطَالِهِ حَسَنَ بِهِ أَنْ يَرُدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ ، قَبْلَ الْهَجُومِ عَلَى إِنْكَارِهِ وَتَزْيِيفِهِ اقْتِدَاءً بِمَسَالِكِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْوِبَةِ مَسَائِلِ الْخَلْقِ فِي مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ .

فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ لَا يُبَادِرُونَ بِجَوَابِ اسْتِفْتَاءَاتِ الْمُسْتَفْتِينَ حَتَّى يُتِمَّ الْمُسْتَفْتِي كَلَامَهُ ، كَمَا قَالَ :

فَرُبَّمَا أَعْيَا ذَوِي الْفَضَائِلِ جَوَابُ مَا يُلْقَى مِنَ الْمَسَائِلِ

فَيُمَسِّكُوا بِالصَّمْتِ عَنْ جَوَابِهِ عِنْدَ اغْتِرَاضِ الشَّكِّ فِي صَوَابِهِ

فَمِنْ حَالِ كُمُلِ الْمُفْتِينَ إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِمْ فَتَوَى أَنَّهُمْ لَا يُبَادِرُونَ إِلَى الْجَوَابِ فِيهَا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ تَمَامُ الْقَوْلِ مِنَ الْمُسْتَفْتِي ، ثُمَّ يُجِيبُونَهُ ، فَتِلْكَ الْحَالُ الَّتِي تَصْلَحُ بِهَا خَلْقُ النَّاسِ فِي الْفَتَوَى هِيَ الْحَالُ الَّتِي تَصْلَحُ بِهَا حَالُهُمْ فِي فَهْمِ الْعِلْمِ ، فَلَا يَكْمُلُ لَهُمُ الْفَهْمُ وَلَا يَتِمُّ لَهُمْ إدْرَاكُ مَعَانِيهِ إِلَّا بِاسْتِمَامِ مَبَانِيهِ ، فَإِذَا صَارَتْ وَافِيَةً تَبَيَّنَ لَهُمُ الْمَعْنَى .

وَلَوْ يَكُونُ الْقَوْلُ عِنْدَ النَّاسِ مِنْ فِضَّةٍ بَيَضًا بَلَا التَّبَاسِ

إِذَا لَكَانَ الصَّمْتُ مِنْ عَيْنِ الذَّهَبِ فَافْهَمْ هَذَاكَ اللَّهُ آدَابَ الطَّلَبِ

📌 ذكر الناظم في هذين البيتين ما يقوي وازع الصمت في النفس ، ويدعوها إلى الإمساك عن كثير من القول ، وهما معنى حكمة سيارة : (إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فِضَّةٍ ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) .

◆ والكلام الذي يكون فضة هو : ما لا يتبين نفعه من ضرره ،

◆ أما بين النفع فإنه من خالص الذهب ، كما أن بين الضرر شواظ من اللهب .

👉 فالكلام المراد إخراجه له ثلاثة أقسام :

1 أحدها : كَلَامٌ بَيْنُ النَّفْعِ ؛ وَهَذَا مِنْ خَالِصِ الذَّهَبِ .

2 وثانيها : كَلَامٌ بَيْنُ الضَّرَرِ ؛ وَهَذَا شَوَاطِظُ مِنَ اللَّهَبِ .

3 وثالثها : كَلَامٌ لَا يَتَبَيَّنُ نَفْعُهُ مِنْ ضَرَرِهِ ؛ فَهُوَ الَّذِي يُعْدَلُ بِالْفِضَّةِ ، وَيَكُونُ السُّكُوتُ حِينَئِذٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ مَأْمُورٌ بِقَوْلِ الْخَيْرِ أَوْ الصَّمْتِ عَمَّا عَدَاهُ .

📖 والحكمة المذكورة : (إِذَا كَانَ الْكَلَامُ مِنْ فِضَّةٍ ؛ فَالسُّكُوتُ مِنْ ذَهَبٍ) ؛ مأثورة عن جماعة من القدماء ، منهم : نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام ، ولقمان الحكيم - الرجل الصالح - .

📌 ثم ختم الناظم بالتأكيد على فهم ما ذكر في هذه المنظومة من الآداب فقال : (فَافْهَمْ هَذَاكَ اللَّهُ آدَابَ الطَّلَبِ) ؛ داعياً إلى حسن تفهم هذه الآداب ، فإن فهمها يدعو إلى العمل بها ، كما أن عدم فهمها يحول دون العمل بها ، وقرن الأمر بالدعاء ترغيباً فيها ، وتحبيباً لها إلى النفوس لحرصوا عليها ويمتنلوا مقتضاها .

أَبْيَاتُهَا مَعَ الزِّيَادَاتِ الَّتِي حَبَّرْتُهَا بِأَرْبَعِينَ عُذَّتْ

✂ خَتَمَ جَامِعُ هَذِهِ النُّبْذَةِ بِهَذَا الْبَيْتِ مِنْ زِيَادَاتِهِ ، الْمُبِينُ عِدَدَ أَبْيَاتِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ ، وَأَنَّهَا أَرْبَعُونَ بَيْتًا ؛ لِجَامِعِهَا مِنْهَا خَمْسَةٌ ؛ أَرْبَعَةٌ فِي أَوَّلِهَا ، وَوَاحِدٌ فِي آخِرِهَا ، وَمَا بَقِيَ فَهُوَ أَصْلُ الْمَنْظُومَةِ .

✍ ومعنى قوله : (حَبَّرْتُهَا) ؛ أَيُ : زَيَّنْتُهَا بِزِيَادَةِ الْحَبْرِ فِيهَا ، فَإِنَّ التَّحْبِيرَ هُوَ التَّزْيِينُ .

✍ وَمِنْ تَزْيِينِ الْخَطِّ : تَسْوِيدُ حَبْرِهِ .

👉 فَإِنَّ الْحَبْرَ إِذَا كَانَ قَوِيًّا بَانَ الْمَكْتُوبُ وَظَهَرَ ، كَمَا يَبْدُو ذَلِكَ جَلِيًّا إِذَا قَارَنْتَ الْأَبْيَاتَ الَّتِي زِيدَتْ بِبَقِيَّةِ الْأَبْيَاتِ ، وَهِيَ مُحَبَّرَةٌ فِي خَطِّهَا ، وَغَيْرُهَا مِنْ أَصْلِ الْمَنْظُومَةِ مُحَبَّرَةٌ فِي مَعَانِيهَا النَّافِعَةِ .

💡 فهذه المنظومة هي من أحسن ما نُظِمَ فِي آدَابِ الطَّلَبِ مَا هُوَ وَجِيزٌ ؛ كَمَا ذَكَرَهُ أَبُو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ» .

💎 فَحَقِيقُ بِنَا جَمِيعًا أَنْ نَحْرَصَ عَلَى حِفْظِ هَذِهِ الْمَنْظُومَةِ أَوْ تَكَرُّارِهَا حَتَّى تَرَسَخَ مَعَانِيهَا فِي نَفُوسِنَا ، وَأَنْ نُحَسِّنَ تَفْهَمَ تِلْكَ الْحَقَائِقِ ثُمَّ نُمَثِّلَهَا بِالْعَمَلِ .

▣ فَإِنَّ بَابَ الْآدَابِ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ الْعَجَبُ الْعُجَابُ ، فَضَيَّعَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ ؛

▣ فَحُرِّمُوا الْعِلْمَ بِسَبَبِ تَضْيِيعِ الْأَدَبِ ، فَمَنْ ضَيَّعَ الْأَدَبَ حَرَّمَ الْعِلْمَ ، وَمَنْ التَزَمَ الْأَدَبَ فَهُوَ جَدِيرٌ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وبهذا البيان يتم بيان معاني هذه المنظومة

على ما يوافق ويناسب المقام

